كلمة سعادة الأستاذ

يـحيـى حقـي

الفائز بجائزة الملك فيصل العالمية

للأدب العربي لعام 1410هـ/1990م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله إلى الناس كافة.

صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز
ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء
ورئيس الحرس الوطني
أصحاب السمو
أصحاب الفضيلة والمعالي
أيها الحفل الكريم

إن قلبي يحدثني أن أصحاب الفضل في هذه الجائزة كانوا يقولون في سرهم: لا يحسبن أحد أن إنشاءها جاء مجاراة للغير أو طلبًا للسمعة أو استجلابًا للثناء، وإنما هو وفاءًا بحق أمتنا العريقة التي أشرق عليها الإسلام فحثها في كتابه المنزل الخالد حثًا مُلِحًا على تأمل الكون، على طلب العلم والمعرفة مهما بلغت المشقة، على إقامة العدل وإزالة الفروق بين الأجناس والألوان، وعلى رعاية كرامة الفرد ومصلحة الجماعة، أمة عشقت الفن إلى حد ألوله متمثلاً في الشعر، وبدأت أول محاولة لتعليل سر النبوغ في الفن، وقالت للشاعر الذي يريد أن يطلبه عليك بوادي عبقر ليركبك فيه واحد من الجن. ولا يزال العلماء إلى اليوم يحاولون كشف سر النبوغ، أدركت أيضًا قبل غيرها معنى الفن وأنه خيال وتمويه يراد بهما الاقتراب من الحقيقة فقالت: أعذب الشعر أكذبه، ورسمت خير وسيلة للتثقيف فقالت للناشئ في الشعر عليك بحفظ مائتي ألف بيت ثم عليك يا فتى بعد ذلك أن تنساها، فاستطاعت هذه الأمة بسبب هذه الفضائل أن تبني حضارة أنتم أدرى مني بتاريخها وأسماء شموسها وأقمارها في كل فروع المعرفة.

لقد تعرض تراثها للتلف والضياع والنهب أيضًا والقليل الباقي منه لم نجمعه بعد ولم ننشره وهذا شيء محزن حقًا.

ثم حدث أن توقف التدفق وحل الجدب، وسؤال ينفل في قلبي متى وكيف وأين ولماذا حدث هذا الانحدار، أنتظر جوابه من علمائنا في التاريخ والحضارة لعلهم يسارعون به إلي.

وصفنا الآن عن الغرب أننا أمة نامية. وهذا كلام لا ينطلي علينا فهم يعنون أننا أمة متخلفة والعلم يجري الآن في كل مضمار جريْ الجنون لا يبالي بما يحدثه من أضرار بليغة بالبيئة بل بمستقبل الكرة الأرضية. لا بد أن نلحقه ولكننا حتى لو لحقناه في غدٍ سنجده قد قفز إلى ما بعد الغد وبعد بعد الغد، ولا أظن أن جيلنا سيشهد لحاقنا بهم فما علينا إلا أن نعد العدة الآن لتشجيع الأبحاث العلمية في كل مضمار وما البحث العلمي إلا موهبة وخيال وطاقم ومعمل واتصالات دورية في جو من الحرية.

لا بد لي أن أشكر لجنة التحكيم التي فاق نص قرارها كل مطمع لي وأكرمني بإفرادي بالجائزة، ونبهت فلعل هناك من قد نسي أنني من رواد القصة القصيرة في مصر، وهكذا ردتني بجرة قلم – جزاها الله خيرًا – إلى الوراء قرابة خمس وستين سنة، فقد عاصرت طفولة هذه القصة. لم يكن بسببي انفجار موهبة فردية تفتح الصفحة الأولى في تاريخ هذا الفن ولا هي انتقال مرحلي من مذهب إلى مذهب بل هي وليدة شعور قومي فقد كانت مصر محتلة بالجيش البريطاني وخرجت انجلترا من الحرب منتصرة ومع ذلك قام الشعب المصري بأجمعه يثور ضدها وينازلها في الشوارع والقرى مطالبًا بالاستقلال ليصبح المطلب هو البحث عن الذات والهوية، وقد تحقق هذا المطلب في الموسيقى على يد سيد درويش، وفي النحت على يد مختار الذي أعده أبدع فنان مصري في العصر الحديث، وفي الاقتصاد على يد طلعت حرب منشئ بنك مصر، وظهر أيضًا على يد نفر من الشباب ألمَّ بلغة أجنبية فحاول التعبير عن هذا الشعور القومي بكتابة القصة القصيرة وتركيز اهتمامهم على عامة الشعب ورجل الشارع، هذه هي ما يسمى جماعة المدرسة الحديثة. شبان اشتروا بمصروف جيوبهم مطبعة يدوية وصفوا الحروف بأنفسهم وأصدروا صحيفة الفجر وقد فصلت تاريخ هذه المدرسة في كتابي "فجر القصة المصرية" الذي أعيدكم إليه اختصارًا للكلام لا للترويج له، قد انتسبت إليهم وصرت في مضمارهم ولكن سرعان ما تبين لي أن صراعي ليس مع أسرار فن القصة القصيرة بل مع أسرار اللغة العربية الفصحى. وليس الأمر أن تعرفها ولكن أن تقترب من سليقتها، ثم التزمت بمبدأ حتمية الكلمة في مكانها لا احترامًا للغة فحسب بل للقارئ أيضًا وإن كنت أقصد إمتاعه ومؤانسته. وقد بينت هذا في كتابي "خطوات في النقد" وأبرئ نفسي مرة أخرى من تهمة الترويج له.

وقد كانت الفصحى في ذلك الوقت في مأزق كيف تسمى المنجزات الحديثة. وأول من قام بالمحاولة هو المرحوم محمد المويلحي. وهكذا فتح باب البحث عن مصطلحات عربية تترجم المصطلحات الغربية، وقد قطعنا فيه ولا شك منذ ذلك الحين شوطًا كبيرًا، ولكن لم نبلغ الغاية بعد وهذا شيء محزن حقًا. لدينا المجامع للغة العربية لا ألحظ أن بينها الاتصال المرجو. وحين تحررت الجزائر ومراكش وبدأت حركة التعريب لديهما من الفرنسي إلى الفصحى تحولت بنظري إلى المغرب العربي بعد أن كان متجهًا إلى المشرق العربي مؤملاً الإسراع في استكمال ما نحتاج إليه من مصطلحات جديدة.

وهكذا كان لفن القصة فضل على الفصحى لم يتحقق في آداب أخرى لأنه هو الذي جرها من عالم الأفكار المجردة والذهنية وأجبرها على الدخول إلى المدينة الحديثة التي تعج بمستجدات لا بد من البحث عن أسماء لها ولا بد أن أذكر هنا فضلاً آخر لرواد القصة القصيرة أنهم رفضوا الكتابة

بالعامية والتزموا الفصحى رغم الإغراء الشديد الذي تعرضوا له من جانب أعداء الفصحى ومن جانب بعض أدعياء الفن الذين قالوا أن الأسلوب لا بد أن يجاري الواقع. فالبواب أو القصاب في الحوار في قصصكم يجب أن ينطق بالعامية وإلا فقد بعدتم عن الصدق مع أن القصة كلها وهم في وهم، ولا بد أن أنبه أن اللغة الفصحى بطريقة تعليمها بالمدارس تمر بأزمة وتكثر الأغلاط لا في النطق بها بل في كتابتها وإن قام بها طلبة الدكتوراه، والعام الجاري قد اتخذته الأمم المتحدة عام محو الأمية، وقد سبقنا أمم أخرى في هذا المضمار ومن العيب والعار علينا ألا ننجح في محو الأمية. ولكني أشترط أن يكون مشروعنا قومياً لا حكومياً. وأتجه بذهني إلى الشباب المثقف وأطالبه بتحقيق هذا المشروع، لقد انحدرت مع الأسف بعض مؤسساتنا الثقافية من كونها مشروعًا قوميًا فأصبحت مشروعًا حكوميًا، هكذا كان مشروع الأزهر ومشروع كتاب القرية.

كم كنت أتمنى أن أحضر هذا الحفل وأن أمثل بين يدي خادم الحرمين الشريفين وأصافحه وأدعو بكل خير له ولدولته وأسرته، وأترحم على مؤسس هذه الدولة الملك عبد العزيز آل سعود. وكان عبقريًا في الحرب وفي السياسة وقد حضرت مجلسه سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين وأنا أعمل سكرتيرًا لقنصلية مصر في جدة، وأترحم أيضًا على المغفور له الملك فيصل صاحب الفضل في مؤازرة مصر وانتصارها في معركتها الأخيرة. هذا ما كنت أتمنى، ولكن عاقني أنني طعنت في السن وأصبحت ممن يقال عنه مقتدر بغيره، ولست أدري هل في يقظة أم منام رأيت رجلاً جاء يسألني: وهل سئمت مثلي فعلمت أنه لبيد فعانقته وقبلته ولم أسأله كما يفعل الناس كيف حالك.